# قراءة في كتاب "سيكولوجية الجماهير: الفكر الغربي الحديث"

# تأليف غوستاف لوبون وترجمة هاشم صالح (١٩٩١)

**سمر توفيق الخطيب* – هند سليمان أبو عز الدّين ****



| | |
|---|---|
| **تاريخ الورود:** | ٣ تموز ٢٠٢٥ |
| **تاريخ التحكيم:** | ١٤ آب ٢٠٢٥ |
| **تاريخ الموافقة على النشر:** | ١١ أيلول ٢٠٢٥ |
| **تاريخ النشر:** | ١٥ أيلول ٢٠٢٥ |



**ملخّص**

صدر كتاب **سيكولوجيّة الجماهير: الفكر الغربي الحديث** في طبعته الأولى عن دار السّاقي عام ١٩٩١، للكاتب غوستاف لو بون(Gustave Le Bon) (١٨٤١ –١٩٣١)، ترجمه وقدّم له الكاتب السّوري هاشم صالح (١٩٥٠ – )، ويقع الكتاب في ٢٢٨ صفحة ، موزّعة بين مقدّمة المترجم ومقدمة الكاتب تحت عنوان "عصر الجماهير" وثلاثة أقسام أخرى أُطلق على كلّ منها لفظة "كتاب. يحمل القسم الأوّل أو الكتاب الأوّل منه عنوان "روح الجماهير" ، ويتألّف من أربعة فصول تتناول خصائص الجماهير، والقانون النّفسي لوحدتها الذّهنية، وعواطفها

* طالبة ماستر ٢ (مسار أدبي)، الجامعة اللّبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللّغة العربية وآدابها.

** طالبة ماستر ٢ (مسار لغوي)، الجامعة اللّبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللّغة العربية وآدابها.

(تضخيمها وتبسيطها) وسرعة انفعالها وسذاجتها وتعصبها واستبداديتها ونزعتها المحافظة؛ وأخلاقياتها وأفكارها ومخيّلتها؛ والأشكال الدّينية الّتي تتخذها كل قناعات الجماهير.

أمّا القسم الثّاني أو الكتاب الثّاني الّذي يحمل عنوان "آراء الجماهير وعقائدها" فيتألّف من أربعة فصول؛ تتناول العرق، والتّقاليد الموروثة، والزّمن، والمؤسسات السّياسية والاجتماعية، والتّعليم والتّربية، والعوامل المباشرة الّتي تسهم في تشكيل آراء الجماهير كالصّور، والكلمات، والشّعارات، والأوهام، والتّجربة، والعقل؛ كما يتناول هذا القسم محرّكي الجماهير، ووسائل الإقناع: كالتّأكيد، والتّكرار، والهيبة الشّخصية؛ وعقائد الجماهير الثّابتة، وآراء الجماهير المتحرّكة.

يحمل الكتاب الثّالث عنوان "تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها يتألف من خمسة فصول، ويتناول المؤلّف فيه الجماهير غير المتجانسة، والجماهير المتجانسة، والجماهير المدعوّة بالمجرمة، وأهمّيّة هيئة المحلفين القادرة على التّخفيف من قسوة القانون، والجماهير الانتخابية، وكيفية إغرائها، والجماهير البرلمانية القابلة للتحريض والعدوى، وتأثيرها في اتّخاذ القرار.

يُعدّ كتاب "سيكولوجية الجماهير" من الكتب المثيرة للجدل، وهذا ما دفع الباحثين إلى الاهتمام بدراسة الجماهير السّياسية المؤطّرة، وطرح تساؤلات حول ظاهرة صعودها في التّاريخ المعاصر ودور القادة في تعبئتها.

**كلمات مفاتيح:** سيكولوكيّة، الجماهير، العرق، الشّعارات، الهيبة الشّخصيّة.

## مقدّمة

يبيّن لوبون في هذا الكتاب أنّ المتغيّرات الوحيدة والتّحوّلات المهمّة الّتي ينتج منها تجدّد الحضارات هي تلك الّتي تصيب الآراء العامّة والتّصوّرات، أمّا الأحداث المأثورة الضّخمة فليست سوى آثار مرئيّة لمتغيّرات لا مرئيّة تصيب عواطف البشر، وتتناقلها كتب التّاريخ (ص ٤٣).

من هنا، يهدف الكتاب إلى دراسة سيكولوجيّة الجماهير وطرائق التّأثير فيها، أمّا إشكاليّة البحث فتكمن في تعريف الجماهير وتحديد أدوارها وخصائصها ومدى خضوعها للقائد.

يحدّد الكاتب عاملين للتّحوّل البشريّ الجذريّ، وهما: تدمير العقائد الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والدّينيّة الّتي تُشتقّ منها عناصر حضارتنا، وخلق شروط جديدة كلّيًّا بالنسبة للفكر والوجود.

ويرى أنّ الأفكار الجديدة لا تحلّ محلّ الماضي لأنّها في طور التّبلور، وأنّ العصر الحديث يمثّل مرحلة فوضويّة وانتقاليّة، بحيث لا يمكننا التّنبّؤ بما سيتولّد في المستقبل (ص ٤٤)، فعلى أي أساس ستنهض المجتمعات المقبلة؟ ويقول الكاتب إنّ قوّة الجماهير أصبحت تجسّد السّيادة الجديدة في هذا العصر، إذ أطاحت بالسّلطات الّتي سحقتها الثّورات والأفكار القديمة، وبدأت تبني سلطتها على أنقاضها، لأنّ نضال الجماهير أصبح قوّة مهيمنة لا يمكن تهديدها وصوتها أصبح راجحًا، بعد أن تشكّلت النّقابات، وتشكّلت بورصات العمل الّتي تتحكّم في الرّواتب، وأصبح للمندوبين دور في صنع القرار داخل المجالس الحكوميّة (ص ٤٤– ٤٥).

في الوقت الحالي، تبلورت مطالب الجماهير، وأصبحت مؤهّلة للانخراط في العمل، فالعقائد الجديدة الّتي نشهد ولادتها، والتّنظيم الحالي، يجعل قوّة الجماهير طاغية، إذ تكتسب قوّة العقائد القديمة نفسها، فتطغى وترفض الاعتراض أو المناقشة (ص ٤٥– ٤٦).

## ١. سيكولوجيّة الجماهير

يأتي القسم "الكتاب" الأوّل من هذا الكتاب بعنوان "**روح الجماهير**"، ويتألّف من أربعة فصول، تتناول مجمل الخصائص العامّة والمشتركة للجماهير، كما تتناول عواطفها وأخلاقياتها، وأفكارها، ومحاجاتها العقلية ومخيلتها؛ إضافة إلى الأشكال الدّينية الّتي تتخذها كل قناعات الجماهير، فالفصل الأوّل الّذي يحمل عنوان "**الخصائص العامة للجماهير والقانون النّفسي لوحدتها الذّهنية**" يشير فيه الكاتب إلى إمكانية تصنيف الجماهير على المستوى النّفسي إلى فئات عدة بحسب المهنة، أو الجنس، أو الهوية القومية، وتنحو الكلمة اصطلاحًا إلى معنى آخر من

وجهة النّظر النّفسية، فحين يكون الفرد ضمن مجموعة، تذوب شخصيته الواعية والمنفردة في روح الجماعة، فلا يتصرّف باستقلالية، بل يتصرف وكأنه جزء من عقل جماعي واحد. وتشكل هذه الجماعة ما يمكن تسميته بالجمهور المنظّم أو الجمهور النّفسي الّذي يتشكّل من كينونة واحدة تخضع لقانون الوحدة العقليّة للجماهير، ونلمس أن شعبًا بأكمله قد يصبح جمهورًا نفسيًّا تحت تأثير عامل ما، من دون أن يكون هناك تجمّعًا مرئيًّا؛ يكتسب خصائص مؤقتة وعامة تؤثر في طريقة تفكيره، وقد تتغيّر تبعًا لعناصره (ص ٥٣-٥٤). ويشير الكاتب إلى إمكانية تصنيف الجماهير النّفسية، فلا داع لاجتماع العديد من الأفراد ليكسبوا صفة الجمهور النّفسي؛ إذ يمكن أن يكونوا منفصلين، ولكنهم يتأثرون بحدث قومي معين. وعندما يجتمعون صدفة، يكون ذلك كافيًا لتتخذ سلوكاتهم هيئة أعمال الجماهير (ص ٥٤).

تُعد دراسة "روح الجماهير" أمرًا معقدًا نظرًا لاختلاف تركيبة الجماهير تبعًا لتوجه المحرضات وقوتها، لا وفق العرق البشري وحده وتشكيلة الجماعات؛ ذلك أن الفرد لا يتحلى بخصائص مستمرة وثابتة، ونجد أن للأفراد المنعزلين كثيرًا من الخصائص النّفسية للجماهير، إلا أن هناك خصائص لا تظهر إلا عند الجماعات (ص ٥٥-٥٦).

يُشبه الجمهور النّفسي خلايا الإنسان الّتي تجتمع وتتوحد لتشكل كائنًا جديدًا، وبخصائص مختلفة عمّا تملكه كل خلية بمفردها. ويرى الفيلسوف البريطاني هيربيرت سبنسر (Herbert Spencer)(١٨٢٠ – ١٩٠٣م)، خلافًا لما يراه الرأي الشّائع؛ أن الجمهور لا ينتج متوسطًا لخصائص أفراده، بل يحصل تركيب جديد لخصائص مختلفة تمامًا كما يحصل في مجال الكيمياء. فإلى هذا المدى يكون الاختلاف بين الفرد المعزول والآخر المنخرط في الجمهور؛ والأصعب هو اكتشاف أسباب مثل هذا الاختلاف.

يتحدّث الكاتب عن تشابه الأفراد الّذين ينتمون إلى العرق نفسه بواسطة العناصر اللاواعية، واختلافهم بواسطة العناصر الواعية الّتي تتشكل بفعل التّربية والوراثة؛ فيشترك البشر – وهم أكثر ذكاءً – مع غيرهم في الغرائز والعواطف الأساسية نفسها، إلا أن هذه الكفاءات العقلية تذوب في روح الجماعة، إذ يذوب المختلف بالمؤتلف، فتسيطر الصّفات اللاواعية (ص ٥٧).

تجمع الجماهير التّفاهة ولا تجمع الذّكاء، إذ يلحظ الكاتب أن الفيلسوف الفرنسي فولتير (Voltaire) (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) أكثر ذكاء من الجموع وليس العكس. وفي حال قبول الأفراد المنضوين في صفوف الجمهور بذوبان صفاتهم وخصوصيتهم، فإننا نتوصل إلى معدل وسطي وليس إلى خلق صفات جديدة (ص ٥٨).

تتحكّم مجموعة من الأسباب في ظهور عواطف الجماهير، أوّلها أنّ الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب شعورًا بالقوة، فينصاع إلى الغرائز، ولولا هذا الشّعور لما انصاع لها، إذ يقول الكاتب إنّ الجمهور بطبيعته غير مسؤول ومغفل، والسّبب الثّاني العدوى الذّهنية أو العقلية الّتي توجه الجماهير، وحتى الآن ليس لها تفسير، ويجب أن نربطها بظواهر خاصة بالتنويم المغناطيسي. إنّ السّبب الثّالث موجود في الأفراد المنخرطين بالجمهور وهو التّحريض، فيتصرف هذا الفرد الهائج ضمن الجمهور وكأنّه منوّم مغناطيسيًا، بحيث يوجهه المُحرض كيفما يشاء. ويمكن لعدد ضئيل مقاومة المُحرض، إلّا أنّ التّيار يجرف معه جماهير كثيرة، وجلّ ما يمكننا فعله هو تحويل الأنظار باتجاه آخر، عبر تقديم اقتراح مختلف، ما يثني الجمهور عن القيام بأعمال دموية (ص ٥٨–٦٠). وتتغيّر شخصيّة الفرد عندما ينخرط في الجمهور، فتضعف شخصيّته الواعية ويفقد إرادته ويتصرف كالآلة، إذ يتأثر بمن حوله عبر العدوى والتّحريض، فيكون معزولًا وربما مثقفًا، فيصبح همجيًّا، وكائنًا بدائيًّا وسط الجمهور (ص ٦٠).

هكذا نفهم كيف تتبنّى المجالس البرلمانية المراسيم والقوانين، الّتي يخالفها كل فرد إذا كان بمفرده. ونجد أن أعضاء الجمعية التّأسيسية بعد الثّورة الفرنسية، يكونون بورجوازيين هادئين، ويصبحون متحمّسين هائجين بعد اندماجهم بالجمهور؛ ونجد أنهم يصدرون حكم الإعدام على أشخاص أبرياء. ويفعلون ذلك عكس مصالحهم، فيقول الكاتب إنّهم "تخلوا عن حصانتهم البرلمانية وأبادوا أنفسهم بأنفسهم" (ص ٦٠).

يرى الكاتب أنّ عواطف الفرد المنخرط في الجمهور وأفكاره تتغيّر، فيصبح قادرًا على تحويل الرّجل الشّريف إلى مجرم، أو البخيل إلى كريم؛ فلم يكن ممكنًا للنّبلاء الفرنسيين أن يتخلّوا عن امتيازاتهم، ويصوّتوا على هذا القرار في الرّابع من آب/أغسطس ١٧٨٩، لو أُخذ كل واحد منهم على حدة. فدائمًا ما نجد أن الجمهور هو أدنى مرتبة

من الإنسان الفرد فيما يخصّ النّاحية الفكرية والعقلية؛ فقد يكون الجمهور مجرمًا أو بطلًا، ويُحرَّض بسهولة على القتل باسم النّضال، أو يُجيش ويُقاد من دون سلاح (ص ٦١).

أمّا الفصل الثّاني فهو بعنوان "**عواطف الجماهير وأخلاقياتها**"، ويشير فيه الكاتب إلى أنّ الكائنات الّتي تنتمي إلى المستويات الدّنيا من التّطور، كالطفل أو الشّخص المتوحش، تتّسم بالعديد من خصائص الجماهير النّفسية، مثل: النّزق، وسرعة الانفعال، والمبالغة في العواطف والمشاعر، وانعدام الرأي الشّخصي، والرّوح النّقدية، والعجز عن المحاكمة العقليّة، ويُجري تحليلًا لهذه السّمات واحدة تلو الأخرى (ص ٦٣). فيبدأ بالحديث عن **سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها** إذ إنّ الجمهور يُقاد تقريبًا من قبل اللاوعي، كونه يتّسم بطبيعة انفعالية ومتقلّبة وهمجية وإن بدرجات متفاوتة. فأفعال الجمهور تقع تحت تأثير النّخاع الشّوكي، أكثر مما تقع تحت تأثير العقل أو المخ. ويتصرف الفرّد وفق التّحريض، كون هذه الأفعال لا تُوجّه من العقل. ويرى الكاتب أنّ الفرد المعزول أكثر أهلية للسيطرة على ردود أفعاله، لأن عقله يتدخّل فلا ينصاع؛ أما الجمهور فلا. فالجمهور لديه القدرة على أن يكون جلادًا، وفي السّهولة نفسها يمكنه أن يصبح شهيدًا وضحية، فها هو نابليون (Napoléon Bonaparte) امبراطور فرنسا (١٧٦٩– ١٨٢١م) (المنجد في الأعلام، ١٩٩٦، ص ٥٦٧). تمكن من أن يستنهض مائة ألف شخص مستعدين أن يضحوا بأنفسهم من أجل قضيته (لوبون، ١٩٩١، ص ٦٣–٦٤).

يعرض الكاتب **سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء**، فيرى أنّ الجمهور غالبًا ما يجد نفسه في حالة من التّرقب لتلقي أي اقتراح يُطرح أمامه؛ فالجمهور لا يحتكم إلى العقل، بل يتصرف بسذاجة؛ والمستحيل غير موجود في وعيه الجمعي، وبهذه الطريقة تولد الحكايات والأساطير، فتنتشر بسرعة من دون الحاجة إلى دليل (ص ٦٦–٦٧). ومن الهلوسات الّتي تحل بالجمهور تحوير الأساطير، فقد جعل نابليون بونابرت شخصية مثاليّة، محبّة للإنسانية وليبرالية في ظل حكم سلالة البوربون (Bourbon) الّتي تُعد من أشهر العائلات الأوروبية الحاكمة، بحيث أصبح، وفق أقوال الشّعراء، "صديقًا للفقراء". وبعد ثلاث سنوات، تحوّلت صورة البطل نابليون إلى ذلك المستبد المبتزّ الّذي يضحّي بثلاثة ملايين رجل من أجل المجد والسّلطة. ونجد أنّه بعد مرور عشرات القرون على ذكراه، يقف علماء المستقبل بحيرة أمام هذه الرّوايات المتناقضة (لوبون، ١٩٩١، ص ٦٨– ٧٣).

ويرى الكاتب أنّ عواطف الجماهير تتميّز بأنّها مبسّطة جدًا ومضخّمة جدًا، سواء أكانت شريرة أم طيبة (ص ٧٤). فعندما يشعر الشّخص العادي بالنّفور من شيء ما، يبقى هذا الشّعور في حجمه الطبيعي، ولكنّه يتحوّل إلى حقد هائج عند الشّخص المنخرط في الجمهور. وهذا ما توصل إليه العالم الفرنسيّ تارد (Gabriel Tarde) (١٨٤٣ – ١٩٠٤م)، عندما ركّز في أبحاثه على جرائم الجماهير؛ ويبيّن أنّ كل من الجاهل، والأبله، والحسود يندفع بقوّة هائلة للتّحرّر من الإحساس بالدونيّة. وتُظهر الجماهير قدرتها على التّفاني من أجل قضيّة نبيلة، عندما يُحسن الخطيب تحريضها مستخدمًا الشّعارات العنيفة لجذبها (ص ٧٤–٧٦).

يتحدّث الكاتب عن **تعصّب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة** الّتي تتجلّى في سلوكها بدرجات وأنماط متفاوتة جدًّا، تبعًا للاختلاف العرقيّ(ص ٧٦–٧٧).

تحترم الجماهير القوة وتُعد الطّيبة نوعًا من أنواع الضّعف، فتنجذب إلى القادة المستبدين، وتحتقر الدّكتاتور المخلوع، لأنّه فقد قوته؛ وترى في القيصر نموذجًا للبطل المحبوب لما يمثله من هيبة وقوة. وهي أيضًا محكومة باللاوعي، لذلك تبقى محافظة جدًا، وتخشى التّغيير وتحترم التّقاليد (ص ٧٧–٧٨). ويشير الكاتب إلى أنه لو كانت هي من تحكم في الماضي، لكان من المستحيل إنجاز اختراعات العصر الحديث(ص ٧٨).

أمّا أخلاقية الجماهير فترتبط بطبيعة المفهوم المعتمد؛ فعندما يُربط هذا المفهوم ببعض الصّفات كالإخلاص والنّزاهة والتّضحية، تصبح هذه الصّفات قادرة على أن تظهر الجماهير في أرفع أنواع الأخلاقية، أما عند ربطه بالاحترام فإنها تفتقر إليه. وقد بيّنت دراسات علماء النّفس أنّ الجماهير كثيرًا ما تنخرط في أعمال منحطّة جدًّا أخلاقيًّا، إلّا أنّه يمكن للأوغاد أن يتحلوا بمبادئ أخلاقية صارمة عندما ينخرطون في الجمهور؛ لذا يجد المؤلّف أن جماهير ثورة ١٨٤٨، الّتي اندلعت في أوروبا في القرن التّاسع عشر، لم تسرق التّحف الثّمينة من قصر التويلري (Palais des Tuileries)، أحد أشهر القصور في التّاريخ الفرنسي، رغم حاجتها إلى ذلك (ص ٧٨–٨٠).

إنّ الفصل الثّالث من هذا الكتاب بعنوان "**أفكار، محاجّات عقلية، مخيلة الجماهير**" يتحدّث فيه الكاتب عن إمكانية تقسيم أفكار الجماهير إلى فئتين: الأفكار الآنية العابرة والطّارئة الّتي تتشكل تحت تأثير اللّحظة، كالانبهار

بعقيدة أو فرد ما؛ ويمكن تشبيه هذه الأفكار بمياه نهر يجري ببطء. فتصبح الأفكار الكبرى الأساسية الّتي عاش عليها آباؤنا بالية، وبالتالي فإنّ المؤسسات الّتي تركز عليها تتزعزع إلى حد كبير. ولا يمكن للأفكار الّتي تُحرض الجماهير أو توحي إليها أن تصبح مهيمنة إلا إذا كانت بسيطة جدًا، وتتّخذ هيئة صورة واضحة في أذهانها.

لا ترتبط هذه الأفكار ببعضها بتسلسل أو بمنطق، بل قد تتغيّر بسهولة، بحيث تأتي فكرة جديدة لتحلّ محل سابقتها، حتى لو كانت مناقضة لها. فالجمهور يتأثر بحسب اللّحظة والصّدفة. وهذه الظاهرة لا تقتصر على الجماهير فقط، بل نجدها أيضًا عند كثير من الأفراد المنعزلين أو المتعصبين دينيًّا، ممن يتصرفون بطريقة تشبه الكائنات البدائية. فغالبًا ما تهيمن الأفكار الموروثة، وتؤثر في سلوكهم؛ ولكن أحيانًا تتعارض هذه الدّوافع في داخلهم، فيتصرفون بطريقة متناقضة من لحظة إلى أخرى (ص ٨٢–٨٣)، وعندما يتعلّق الأمر بأفكار علميّة أو فلسفيّة عالية نسبيًا، نلاحظ أنها تحتاج إلى تحوّلات كبيرة ليتمكّن الجمهور من فهمها، وتعتمد هذه التّحولات على العرق بشكل أساسيّ، فيُعمد إلى تبسيط الفكرة حتى تفقد عمقها، فتصل إلى الجماهير مُعرّاة من كل من صنع رفعتها (ص ٨٣).

يبيّن الكاتب أنّ قيمة فكرة ما لا تكمن بذاتها، بل تكمن بالآثار النّاتجة عنها؛ فمن حيث الفلسفة، قد تُعد الأفكار الدّيمقراطية في القرن الماضي، والأفكار المسيحية في العصور الوسطى، والأفكار الاجتماعية السّائدة اليوم، أفكارًا خاطئة أو ضعيفة، ولكن كان، ولا يزال، لها التّأثير الكبير، لأنّها تُعد من العوامل الأساسيّة المؤثّرة على سلوك الدّول والأنظمة لفترة طويلة (ص ٨٣–٨٤). وحتى بعد أن تتحوّل هذه الأفكار وتصبح في متناول الجمهور، فإنّها لا تؤثر حتى تدخل إلى اللاوعي وتصبح عاطفة متينة مبلورة، وهذا التّحول يكون عادة طويلًا جدًا. فالمثقف يلقي أذنًا صاغية للحقيقة السّاطعة، إلّا أنّه يعيدها فورًا بواسطة اللاوعي إلى أفكاره البدائية. وبعد وقت، يستخدم المحاجات القديمة نفسها؛ فالأفكار السّابقة تصبح عواطف راسخة، تؤثر في السّلوك والتّوجّه والأفعال والكلمات. إنّ الأفكار الفلسفية الّتي أدت إلى الثّورة الفرنسية (١٧٨٩)، أخذت وقتًا طويلًا لتنغرس في روح الجمهور. وكما تحتاج الأفكار إلى وقت طويل كي تترسّخ، فإنّها تحتاج إلى الوقت نفسه كي تخرج من نفوس الجماهير. ولهذا نجد أنّ الجماهير متأخرّة عن الفلاسفة والعلماء بأجيال عدّة، من وجهة النّظر الفكرية. ونجد أن السّياسيين

مضطرون للحكم بموجب الأفكار الأساسية مع أنهم يعلمون أخطاءها، لأنّ تأثيرها ما زال قويًا على النّفوس (ص ٨٤-٨٥).

ترتكز المحاجات البسيطة الّتي تعتمدها الجماهير على التّشبيه والرّبط، وهي تشبه إلى حدّ كبير محاجات المثقفين، مع فرق أنّ هذه الرّوابط تكون ظاهرية وسطحية ومتنافرة؛ فمثلًا يلاحظ النّاس في الأسكيمو (Eskimos)، أي شعوب القطب الشّمالي، أن الجليد شفاف ويذوب في الفم، وبما أن الّزجاج شفاف أيضًا، فإنهم يظنون أنه يمكنه أيضًا أن يذوب في الفم. ويعرف الخطباء كيف يتلاعبون بالجماهير باستخدام روابط بسيطة، تمكّنهم من تحريكها والتأثير فيها؛ لذا لا يمكن إقناع الجماهير بالمنطق أو التّفكير العقلاني، وهذا ما يحرم الجمهور من كل روح نقدية، أي من القدرة على التّمييز بين الخطأ والصّواب، إذ يصعب على هذه القدرة أن تصدر حكمًا دقيقًا على الأمور؛ فالأحكام الّتي يقبلها الجمهور تكون مفروضة عليه، ولا تقبل النّقاش (ص ٨٥).

يشبّه الكاتب خيال الجماهير بخيال كلّ الكائنات الّتي لا تعتمد على التّفكّر العقلاني، بل إنّها تتأثّر بواسطة الصّور، لهذا فإنّها لا تدرك معنى المستحيل، فتنجذب إلى ما هو أكثر تأثيرًا وإدهاشًا. أي إلى الجوانب الأسطورية والسّاحرة للأحداث. واللافت أن الرّكيزتين الحقيقيتين اللّتين قامت عليهما الحضارات هما، السّاحر والأسطوري، حيث كان للمظهر تأثير أكبر من الواقع، فغالبًا اللاواقعي يهيمن على الواقعي (ص ٨٥-٨٦). ونجد أن لا شيء يؤثر في خيال الجماهير أكثر من مسرحية تعرض صورًا واضحة، فتترك الأثر العميق والقوي في النّفوس، فتحرض الجماهير وتحثها على التّفاعل. فأحيانًا نجد أن هناك خوفًا من اعتداء الجماهير على الممثل في المسرحية، لأنّ المشاعر الّتي تمكنت المسرحية من إثارتها، تجعل الجماهير تميل إلى عدم التّمييز بين الواقع والخيال أي الواقعي واللاواقعي. فقوة الدّول والفاتحين تأسّست على قاعدة الخيال الشّعبي، فبواسطته تمّ تحريك الجماهير وتجييشها؛ فكلّ ما شهده التّاريخ من ثورات أو تأسيس الدّيانات، هو نتيجة مباشرة لانطباعات قويّة أثّرت في خيال الجماهير (ص ٨٦-٨٧). وهذا الخيال الشّعبي هو أكبر داعم لقادة الدّول، في كل زمان ومكان. وهذا ما أدركه نابليون جيدًا، فكان همّه الدّائم والأول إدهاش الجماهير والتأثير في مشاعرها، فحتى وهو على فراش الموت، كان يفكر في الجماهير ومخيّلتها (ص ٨٧).

يرى الكاتب أن تأثير الوقائع على مخيلة الجماهير لا يأتي من هذه الوقائع بحد ذاتها، بل من طريقة عرضها على الجمهور؛ وبالتالي، فإن فهم كيفية التّأثير في مخيلة الشّعوب هو سر السّيطرة عليها وفن حكمها. وتتأثر الجماهير بالعاطفة الدّينية (ص ٨٩).

أمّا الفصل الرّابع فهو بعنوان "**الأشكال الدّينية الّتي تتّخذها كل قناعات الجماهير**" ويتناول المؤلّف فيه كلّ عقائد الجماهير، فيجد أنها تتلبّس زيًّا دينيًا، إذ إنّ البطل الّذي تصفّق له الجماهير هو بالنسبة إليها إله. وهذا ما حصل حين تم تأليه نابليون مدة خمسة عشر عامًا، فتمكن من إرسال النّاس إلى الموت بسهولة، بحيث أن آلهة المسيحية والوثنية لم تتمكن من ممارسة هذه الهيمنة على النّفوس كما فعل نابليون. وقد نبه المؤرخ الفرنسي فوستيل دو كولانج (Fustel de Coulanges) (١٨٣٠ – ١٨٨٩م)، في كتابه عن بلاد الغال (Gallia) الرّومانية، إلى أنّ استمرار الإمبراطورية الرّومانية لم يتمّ بالقوة، بل تمّ بواسطة الإعجاب الدّيني الّذي تلهمه للجماهير. ومعظم المهيمنين والفاتحين في أيّامنا هذه، لهم تماثيل وصور معلّقة، ولا تختلف عبادة الجماهير لهم عن عبادة الجماهير السّابقة لأباطرة العصور القديمة، حيث كانوا يجسدون لهم التّماثيل والهياكل في كل المناطق والقرى (ص ٩٢–٩٤). فلم تُهزم العاطفة أبدًا في صراعها الأبدي مع العقل. فعلى الرّغم من أنّ الجماهير لم تعد ترغب في سماع كلمتي الدّين والآلهة، إلّا أنّنا نجد أنّ التّماثيل ما زالت تُرفع، وأنّ الهياكل ما زالت تُبنى في وقتنا هذا. ولا تترسخ العقائد السّماوية والاجتماعية والسّياسية لدى الجماهير إلّا بشرط أن تكتسي دائمًا الحلّة الدّينية الّتي تجعلها بمنأى عن أي مناقشة. ولا يمكن لأي ثورة أو انقلاب أن تحدث ما لم تنبثق من روح الجماهير، إذ إن أكبر المستبدين يعجزون عن تهييجها إن لم تكن مهيأة للتحرّك (ص ٩٤–٩٥).

## ٢. آراء الجماهير وعقائدها

يعرض المؤلّف في الكتاب الثّاني الّذي يحمل عنوان "**آراء الجماهير وعقائدها**" العوامل الّتي تشكل عقائد الجماهير وآراءها. من أربعة فصول، تتناول العوامل البعيدة الّتي تشكل عقائد الجماهير وآراءها؛ والعوامل المباشرة الّتي

تسهم في تشكيل آراء الجماهير، ويتحدّث عن محرّكي الجماهير ووسائل الإقناع الّتي يمتلكونها؛ كما يتناول محدودية تغيّر كل من عقائد الجماهير وآرائها.

والفصل الأول من هذا الكتاب يحمل عنوان "**العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها**"؛ فالعوامل البعيدة تمهّد، بعد عمل طويل، لجعل الجماهير تتبنّى بعض القناعات وترفض قناعات أخرى. أمّا العوامل المباشرة فهي الّتي تحدث مباشرة بعد هذا العمل التّمهيديّ الطّويل، فتُجيّش الجماهير وتحرّك الجماعات البشريّة فجأة، ففي الثّورة الفرنسيّة مثلًا تكمن العوامل البعيدة الّتي هيّأت روح الجماهير للثّورة في نقد الكتّاب والمفكّرين للنّظام القديم، ثمّ ابتزاز هذا النّظام القديم وتجاوزاته، أمّا العوامل المباشرة فتكمن في خطابات الخطباء ومقاومة البلاط الملكيّ لإجراء الإصلاحات (ص ٩٩–١٠٠).

يشير الكاتب إلى أنه من بين العوامل البعيدة، تلك الكامنة في أعماق الجماهير وآرائها، ومنها: العرق والتّقاليد الموروثة، والزّمن، والمؤسّسات، والتّربية والتّعليم. فعامل العرق يوضع في المرتبة الأولى، وهو أهمّ من العوامل الأخرى مجتمعة، فالبيئة والظّروف والأحداث يبقى فعلها مؤقّتًا إذا كانت مخالفة له (ص ١٠٠). أما التّقاليد الموروثة فهي الأفكار والعواطف المتعلّقة بالماضي أي خلاصة العرق، فقد تغيّرت علوم الأحياء منذ أن بيّنت التّأثير الهائل للماضي على تطوّر الكائنات، وسوف تشهد العلوم التّاريخيّة هذه الظّاهرة نفسها، فالشّعب هو كائن عضويّ مخلوق من قبل الماضي، والتّقاليد الموروثة هي الّتي تقود الشّعوب، لأنّ الإنسان منذ وجوده على الأرض يخلق شبكة من التّقاليد ثمّ يهدّها بعد استنفاد آثارها الإيجابيّة، فالتّقاليد الثّابتة أساس الحضارة، لكنّ التّقدّم لا يحدث إلّا بإزالتها بطريقة بطيئة وتدريجيّة، لذا يجب إيجاد توازن عادل بين الثّبات والتّحوّل، وهنا تكمن الصّعوبة، فالجماهير تُحافظ على الأفكار التّقليديّة وتُقاوم تغييرها، ويظهر ذلك كثيرًا لدى الفئات الّتي تُشكّل الطّبقات المغلقة ذات الامتيازات (ص ١٠١– ١٠٢).

يرى الكاتب أنّ الزّمن يؤثّر تأثيرًا كبيرًا في المشكلات البيولوجيّة والاجتماعيّة، فهو يستطيع تغيير الظّواهر المختلفة، ويتحكّم بالقوى الكبرى المؤثّرة كالعرق مثلًا، كما يجعل كلّ العقائد تتطوّر وتموت، وبفضله تتراكم الآراء والعقائد لتولّد أفكار عصر ما، والزّمن هو الّذي يجعل الأشياء تتغيّر وتتحوّل، ويتكفّل بإعادة التّوازن (ص ١٠٢– ١٠٣).

وتشيع المؤسّسات السّياسيّة والاجتماعيّة، حتّى الآن، الفكرة الّتي تقول إنّ المؤسّسات مهمّة في علاج نواقص المجتمع، وإنّ اكتمال الدّساتير وأشكال الحكومات يُنتج تقدّم الشّعوب، وإنّ المتغيّرات الاجتماعيّة تحدث حين تُسنّ القوانين، وقد حاول الفلاسفة والمؤرّخون دحض هذه الفكرة من دون جدوى؛ لكنّ المؤسّسات هي بنت الأفكار والعواطف والأخلاق والطّبائع، وهي منتوج العرق، فالشّعوب محكومة بما تمليه عليها خصائصها وطباعها. لذا يجب ألّا نتعب في سنّ الدّساتير بل نترك ذلك للضّرورة والزّمن (ص ١٠٤–١٠٥).

أما بالنسبة إلى عامل التّعليم والتّربية، فيقول الكاتب إنّ فكرة دور التّعليم في تحسين أوضاع البشر والمساواة بينهم تهيمن في عصرنا هذا، وقد أصبحت قاعدة من قواعد الدّيمقراطيّة، ولكن يوجد تناقض كبير بين الأفكار الدّيمقراطيّة ومعطيات علم النّفس والتّجربة في هذه النّقطة وفي غيرها أيضًا. فقد قال بعض الفلاسفة كـ "هيربرت سبنسر" (Herbert Spencer) (١٨٢٠ – ١٩٠٣م) إنّ التّعليم لا يجعل الإنسان أكثر أخلاقيّة ولا أكثر سعادة، بل قد يكون ضارًّا إذا طُبّق بشكل سيئ. وأكّد علماء الإحصاء هذه الآراء وقالوا إنّ الجريمة تتزايد مع تعميم ظاهرة التّعليم، ولكن لا أحد ينفي دور التّعليم الجيّد في الحصول على نتائج مفيدة وتحسين القدرات المهنيّة، فالخطأ الّذي ارتكبته التّربية القائمة على التّلقين والحفظ وإلغاء دور العقل والرّأي الشّخصيّ، أدّى إلى تهيئة الطّلّاب للوظائف العامّة الّتي لا تطلّب جهدًا شخصيًّا، وخلق مجموعة من البروليتاريين (الطبقة العامة) النّاقمين على وضعهم والمستعدّين دائمًا للتّمرّد، كما خلق بورجوازيّة (الطبقة الّتي تملك وسائل الإنتاج وتتحكم بالاقتصاد) عاجزة تثقّ ثقة عمياء في دولة تتهمها بارتكاب الأخطاء. ومن ناحية أخرى، لا تستطيع الدّولة الّتي تخرّج هذه النّوعيّة من الطّلّاب أن توظّفهم كلّهم، لذا تبقى فئة منهم عاطلة عن العمل فتُعادي الدّولة. لذلك، يقترح المؤلّف اعتماد التّعليم المهني والتّخصّصي لأنّه، في رأيه، وحده يستطيع إعادة الشّباب إلى الحقول والمزارع والشّركات الاستعماريّة المهجورة اليوم. ولنوع التّعليم والتّربية دور كبير في تحسين روح الجماهير، لذا يجب أن يعتمدا على تأهيل الطّالب للتجربة العمليّة وتنمية ذكائه وقدراته (ص ١٠٧– ١١٤).

يتناول الفصل الثّاني **العوامل المباشرة الّتي تُسهم في تشكيل آراء الجماهير**، ومنها: **الصّور، والكلمات، والعبارات (أو الشّعارات)، والأوهام، والتّجربة، والعقل. أمّا الصّور، والكلمات، والعبارات (أو الشّعارات)** فتتأثّر بها مخيّلة

الجماهير، وإذا لم نكن نملك الصّور فيمكن أن نثيرها في مخيّلة الجماهير من خلال الاستخدام الذّكيّ والصّائب للكلمات والعبارات المناسبة، فالكلمات الّتي يصعب تحديد معانيها أكثر قدرة على التّأثير، كـ"ديمقراطيّة" و "اشتراكيّة" و "مساواة" و "حرّيّة"... فهذه الكلمات معانيها غامضة تحتاج إلى مجلّدات لشرحها، لكنّها تمتلك قدرة على التأثير. ولأنّ الصّور الّتي تثيرها الكلمات مستقلّة عن معانيها، فإنّها تختلف من عصر إلى آخر ومن شعب إلى آخر، وهذا ما يفسّر فقدان قدرة الكلمات على التّأثير، واستحالة الترجمة الدقيقة؛ إذ حين نترجم كلمة من اللّغة الفرنسيّة مثلًا، فإنّنا نعطيها معنى جديدًا مختلفًا، لأنّ الصّور والأفكار في عصرنا مختلفة عن تلك الّتي كانت تولد من روح الأعراق الخاضعة لشروط وجود لا علاقة لها بشروط وجودنا، فأناس الثّورة الّذين ظنّوا أنّهم قلّدوا الإغريق أو الرّومان كانوا مخطئين لأنّ كلّ ما فعلوه أنّهم أعطوا الكلمات القديمة معنى جديدًا. وكلمة حرّيّة أيضًا تغيّر معناها، لذا يجب على رجل الدّولة الحقيقيّ أن يستبدل بالكلمات المزعجة أخرى مؤثّرة في الجماهير؛ كما استبدل بكلمة(taille) الّتي كانت تعني ضريبة كانت تُفرض في فرنسا أيّام الحروب، كلمة (contribution foncière) أي المساهمة العقاريّة. لذا على القادة اختيار الكلمات ليجعلوا الجماهير تقبل أبشع أنواع الأشياء، فالكلمات في المجتمع نفسه لها معانٍ مختلفة بالنسبة للطّبقات الاجتماعيّة المختلفة والأعراق المختلفة (ص ١١٥– ١٢٠).

وأمّا **الأوهام** فتؤثّر في الشّعوب منذ فجر البشريّة، وكانت الأوهام في الماضي دينيّة ثمّ أصبحت فلسفيّة واجتماعيّة في وقتنا الحاض. وباسمها أقيمت معابد الكلدانيين، ومعابد مصر، والنّصب التّذكاريّة الدّينية في القرون الوسطى، والثّورة الفرنسيّة الّتي قلبت أوروبا؛ وهي الّتي جعلت الإنسان يخرج من الهمجيّة البدائيّة، وحثّت الشّعوب على خلق الفنون والحضارات، فالبشر يحتاجون إلى الأمل والوعود.

وقد حاول الفلاسفة تدمير الأوهام الاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة الّتي عاش عليها آباؤنا طيلة قرون عديدة، لكنّهم لم يقدّموا أيّ مثال أعلى قادر على جذب الشّعوب؛ لذا نجدها تتوجّه نحو الخطباء البلاغيّين لإيجاد هذه الأوهام، فالخطأ أسهم في تطوّر الشّعوب أمّا الحقيقة فلم يكن لها دور في ذلك، لذا يجد الكاتب أنّ الاشتراكيّة تنتشر بين الجماهير لأنّها الوهم الوحيد الّذي لا يزال حيًّا حتّى الآن (ص ١٢١– ١٢٢). وأمّا **التّجربة** فيُعدّها الكاتب المنهجيّة الوحيدة الفعّالة لزرع حقيقة ما في روح الجماهير وتدمير الأوهام الّتي أصبحت خطرة أكثر ممّا ينبغي، لذا يجب

تعميمها على مستوى أوسع وبشكل مكرّر ومعاد، وهي تختلف من جيل لآخر، وقد خاضت الشّعوب تجارب مدمّرة لاكتشاف حقائق كثيرة، كتجربة الثّورة الفرنسيّة مثلًا الّتي قلبت أوروبا لتبرهن أنّه لا يمكن إعادة بناء المجتمع من جديد على أساس تعليمات العقل الخالص؛ كما خاضت تجربتين مدمّرتين لتبرهن أنّ القياصرة يُكلّفون الشّعب غاليًا، وسوف يلزمنا خوض تجارب مدمّرة لكي نبرهن أن نظام الحماية يؤدّي إلى الإفلاس (ص ١٢٢– ١٢٣).

يتحدّث الكاتب عن العقل بوصفه عاملًا سلبيًّا لأنّ الجماهير لا تتأثّر بالمحاجات العقليّة بل بالعواطف الجيّاشة، لذا يصاب المنطقيّون بالصّدمة لأنّ كلامهم لا يلقى أيّ صدى لدى الجماهير. والدّليل على ذلك استمراريّة الخرافات الدّينية الّتي تتنافى مع المنطق مدّة قرون طويلة، فالأوهام قد تكون ضروريّة لأنّها بنت اللّاوعي الّذي يقودنا ويحرّكنا، وكلّ عرق بشريّ يحمل في تكوينه العقليّ أو الذّهنيّ قوانين مصيره (ص ١٢٣– ١٢٦).

أمّا الفصل الثّالث فيتحدّث عن **محرّكي الجماهير، ووسائل الإقناع الّتي يمتلكونها** ويستعرض فيه الكاتب وسائل الاقناع الّتي يمتلكها أصحاب السّلطة في تحريك الجماهير الّتي تميل إلى أن تضع نفسها تحت سلطة القائد أو الزّعيم الّذي تشكّل إرادته نواة تنصهر فيها الآراء. فالجمهور قطيع يحتاج إلى سيّد، وهذا القائد بدوره منقاد لفكرة ما يُبشّر بها. وتُعدّ سلطة القائد استبداديّة جدًّا، إذ يميل قادة الجماهير اليوم إلى أن يحلّوا محلّ السّلطات العامّة، فإذا مات القائد في حادث ما ولم يأت غيره يتحوّل الجمهور إلى تجمّع بشريّ غير متماسك، فالشّيء المهيمن على الجماهير هو الطّاعة والعبوديّة.

يشكّل محرّكو الجماهير فئات متمايزة، فبعضهم رجال نشطون يمتلكون إرادة قويّة ولكن آنية ومؤقّتة، وهم شجعان وعنيفون، يجرّون الجماهير إلى ما يريدونه، ولكنّهم يمتلكون طاقة مؤقّتة يُصبحون بعدها عاجزين عن التّصرّف والتّفكير؛ لذا عليهم أن يكونوا دائمًا منقادين لرجل أو لفكرة، وبعضهم الآخر رجال يمتلكون إرادة قويّة ودائمة في آن معًا، ولهم تأثير كبير، ومن بينهم نجد المؤسّسين الحقيقيّين للأديان أو للمنجزات الكبرى (ص ١٢٧– ١٣٢).

أمّا **وسائل العمل الّتي يستخدمها المحرّكون أو القادة فهي التّأكيد، والتّكرار، والعدوى،** إذ يرى الكاتب أنه عندما نريد التّأثير في الجمهور ودفعه لارتكاب عمل ما، كأن ينهب قصرًا مثلًا، علينا أن نستخدم المحرّضات السّريعة، وقد يكون النّموذج أو القدوة من أفضل المحرّضات وأكثرها تأثيرًا، ويشير إلى أن القادة يلجؤون إلى ثلاثة أساليب

لإدخال فكرة في روح الجماهير، وهي: التّكرار والتّأكيد والعدوى، فتأثير هذه الأساليب بطيء لكنّه دائم. فالتّأكيد الخالي من المحاجّة العقلانيّة وسيلة موثوقة لإدخال فكرة في روح الجماهير، وقد اعتمدته الكتب الدّينيّة ورجال الدّولة المدافعون عن قضيّة سياسيّة معيّنة ، ورجال الصناعة الّذين ينشرون سلعهم بواسطة الإعلان (ص ١٣٢– ١٣٣)؛ لكنّ الإعلان يحتاج إلى تكراره باستمرار بالكلمات والصّياغات نفسها، لأنّ التّكرار يؤدّي إلى انغراس الشيء في الزّوايا العميقة للّاوعي، مثلًا إذا تكرّر على أسماعنا أنّ أفضل أنواع الشّوكولا هو النّوع (س) سينتهي بنا الأمر إلى الاقتناع بذلك (ص ١٣٣).

يرى الكاتب أن العواطف والأفكار والانفعالات والعقائد الإيمانيّة تمتلك عدوى كعدوى الجراثيم، وتُلاحَظ هذه الظّاهرة لدى الحيوانات أيضًا؛ فصهيل حصان واحد يؤدّي إلى صهيل أحصنة أخرى. والانفعالات كالخوف والهلع والمفاجأة، وكذلك الاضطرابات العصابيّة وغيرها تنتشر بفعل العدوى، وقد تنتقل من الإنسان إلى الحيوان، أو إلى شعوب أخرى (ص ١٣٣– ١٣٤). ويُشكّل التّقليد جزءًا من آثار العدوى، كتأثير الموضة مثلًا، أو تقليد الشّخصيّات البارزة؛ فالعدوى لا تفرض الآراء فقط، بل تفرض أيضًا بعض الطّرق في الإحساس والشّعور، ويمكن أن تجعل النّاس يحتقرون عملًا أدبيًّا في مدّة ما ويستحسنونه في مدّة أخرى، وهكذا تنتشر الآراء والعقائد بواسطة العدوى وتنتقل من الطّبقات الشّعبيّة إلى الطّبقات العليا (ص ١٣٤ – ١٣٦).

أمّا **الهيبة الشّخصيّة** فتُعدّ مصدر قوّة الآراء المنتقلة من طريق التّكرار والتّأكيد والعدوى (ص ١٣٦)، وقد فرض الأشخاص سيطرتهم على العالم من طريق الهيبة، وكذلك الأفكار اعتمدت الطّريقة نفسها. والهيبة قد تشتمل على بعض العواطف كالإعجاب والخوف، وهي عبارة عن نوع من الجاذبيّة يمارسها شخص أو عقيدة أو عمل أدبيّ على روحنا، وهي أساس كلّ هيمنة، وهناك نوعان من الهيبة وهما: الهيبة المكتسبة والهيبة الذّاتيّة أو الشّخصيّة. إنّ الهيبة المكتسبة هي الّتي تأتي من خلال الاسم (اسم العائلة) والثّروة والشّهرة، أمّا الهيبة الذّاتيّة فتستطيع الاستغناء عن كلّ ذلك. لذا نجد أنّ الهيبة المكتسبة أو الاصطناعيّة أكثر انتشارًا؛ فقد يكسب الإنسان هيبته من منصبه مثلًا. وهناك هيبة للأفكار أيضًا، وهي في الغالب تكرار متراكم (ص ١٣٧–١٣٨). أمّا الهيبة الشّخصيّة، فتختلف عن الهيبة المكتسبة، وتشكّل ملكة مستقلّة عن كلّ لقب أو سلطة (ص ١٣٨)، ويتمّ تقليدها بشكل غير

واعٍ، لكنّ الهيبة الشّخصيّة تنتهي دائمًا مع الفشل؛ فالشّخص الّذي يفشل يفقد هيبته، ويمكن أن تزول أيضًا بالمناقشة والمجادلة ولكن بطريقة بطيئة (ص ١٤٣-١٤٤).

يتناول الفصل الرّابع من هذا القسم "الكتاب" **محدودية تغيّر كل من عقائد الجماهير وآرائها**، ويعرض الكاتب فيه العقائد الثّابتة والآراء المتحركة للجماهير. ويرى الكاتب أن هناك تشابهًا بين الخصائص التّشريحيّة للكائنات والخصائص النّفسيّة، فهناك عناصر ثابتة يلزمنا مدّة لتغييرها، وعناصر متحرّكة يمكن تعديلها، وهذه الظّاهرة نفسها تنطبق على الخصائص الأخلاقيّة، فعقائد الجماهير تُشكّل طبقتين وهما العقائد الإيمانيّة الكبرى الّتي تدوم قرونًا عديدة وتتطلّب ثورات لتغييرها، والآراء العابرة والمتغيّرة (ص ١٤٥- ١٤٦).

يشير الكاتب إلى أنه عندما تتزعزع أسس عقيدة ما، تنهار مؤسّساتها ببطء وتتغيّر خصائص حضارتها، وقبل اعتماد عقيدة جديدة يعيش الشّعب في حالة من الفوضى، لذا تُدافع الشّعوب عن عقائدها الإيمانيّة بنوع من التّعصّب، وحين تزرع عقيدة جديدة في الجماهير تسيطر على نفوسها، وعلى مؤسّساتها وسلوكها، وإذا انبثقت أفكار ثانويّة عن العقيدة الرّئيسة، فإنّها تحمل الإيمان نفسه، والعقائد الإيمانيّة في عصر ما تجعل الرّجال يرزحون تحت نير الأعراف والآراء والتّقاليد (ص ١٤٦-١٤٨).

### ٣. فئات الجماهير وأنواعها

يستعرض المؤلف في "الكتاب الثّالث" فئات الجماهير ويصنف أنواعها، ويدرس محكمة الجنايات، ويلقي الضوء على الجماهير الانتخابية والمجالس النيابية.

يتألف "الكتاب الثّالث" من كتاب لوبون من خمسة فصول، حيث يصنّف فيه الكاتب فئات الجماهير، ويقسّمها إلى أنواع عدة، ويستعرض مواضع الاختلاف بينها. ويدرس فيه فئة محكمة الجنايات الّتي تُعد أكثر أهمية من فئات المحلّفين، كما يتناول الجماهير الانتخابية بالدراسة. ويفرد لوبون في كتابه مساحة واسعة للمجالس النيابية وكيفية تشكلها.

يصنّف في الفصل الأوّل من هذا الكتاب الجماهير، ويرى أنّها تتميّز بالكثرة والعدد، وتكون مؤلّفة من أعراق أو أجناس مختلفة وتلتقي وتتجمّع حول إرادة الزّعيم المحترمة. ويقول إنّ العرق الواحد قد يتشكّل من كثرة انصهارها في بعضها بعضًا تحت تأثير عوامل مختلفة (ص ١٥٧).

ويقسّم لوبون فئات الجماهير إلى جماهير متجانسة وجماهير غير متجانسة؛ وتتمثّل الجماهير المتجانسة بالطّوائف (السّياسيّة، الطّوائف الدّينيّة...)، والزّمر (زمرة عسكريّة، زمرة كهنوتيّة، زمرة عمّاليّة...)، (الطّبقة البورجوازيّة، الطّبقة الفلّاحيّة...) التي تتشكّل من أفراد ذوي أصول مختلفة تجمعهم بعض المصالح وبعض عادات الحياة والتّربية المتشابهة (ص ١٦٠).

وهذه الفئات تشكّل المرحلة الأولى من مراحل تشكيل الجماهير المتجانسة، وتجمع أفرادًا من ثقافات ومهن وأوساط مختلفة، تحت رابطة وحيدة وهي الإيمان والعقيدة. في حين أنّ الزّمر (زمرة عسكريّة، زمرة كهنوتيّة، زمرة عمّاليّة...) تُشكّل أعلى درجات التّنظيم، وتجمع أفرادًا من المهن نفسها، أي لديهم تربية متماثلة (الزّمرة العسكريّة والكهنوتيّة...) (ص ١٦٠). أمّا الجماهير غير المتجانسة فهي جماهير مغفّلة من مثيلاتها جماهير الشّارع التي ينعدم شعورها بالمسؤوليّة، وجماهير غير مغفّلة كهيئة المحلّفين والمجالس البرلمانيّة...، ويكون شعورها بالمسؤوليّة متطوّرًا (ص ١٥٨– ١٥٩). ويرى أنّ الظّروف تكشف الاختلافات العميقة النّاتجة من تركيبة البشر الذّهنيّة الموروثة.

ويصنّف الكاتب في الفصل الثّاني الجماهير المدعوّة بالمجرمة ، والتي يرى بأنها تقع تحت تأثير الحماسة، ويشير إلى صعوبة وصفها ، لكنّه يحتفظ بهذه التّسمية لأنّها ترسّخت في بعض البحوث النّفسيّة التي ترسّخ هذا الوصف بسبب فبعض أعمال الجماهير العنيفة التي تنتج من تحريض ضخم يجعل الأفراد يقتنعون بأنّهم قد قاموا بواجبهم. تتميّز هذه الجماهير بقابليّة التّحريض، والسّذاجة أو سرعة التّصديق، والحركيّة والخفّة، والمبالغة في العواطف سواء أكانت طيّبة أم سيئة، وتبدّي بعض أشكال الأخلاقيّة... (ص ١٦٢).

أمّا الفصل الثّالث فيتحدّث فيه الكاتب عن **محلّفي محكمة الجنايات**، ويرى أنّهم يشكّلون مثالًا للجمهور غير المتجانس وغير المغفّل أي الّذي يمتلك الخصائص الآتية: القابليّة للتحريض، وضعف القدرة على المحاكمة

العقليّة، وتأثير القادة والمحرّكين...، (ص ١٦٧–١٦٩). ويشير إلى أنّ بعض المحامين يستفيدون من مهارتهم في الخطبة للتّأثير في القادة المحرّكين لهيئة المحلّفين(ص ١٧٠–١٧٢).

ويرى الكاتب في الفصل الرّابع أنّ **الجماهير الانتخابيّة** هي جماهير غير متجانسة، ولا تؤثّر إلّا على اختيار شخص واحد من بين المرشّحين، لذلك لا نستطيع أن نجد لديها إلّا بعض الخصائص الّتي ذكرناها سابقًا، وصفاتها الأساسيّة هي: ضعف القابليّة على التفكير العقلانيّ، وانعدام الرّوح النّقديّة، والنّزق، وسرعة الغضب، والسّذاجة وسرعة التّصديق، والتّبسيطيّة. لذا تتأثّر قراراتها بالقادة المحرّكين وبالعوامل الّتي ذُكرت سابقًا كالتّوكيد، والتّكرار، والهيبة الشّخصيّة، والعدوى.

أمّا في الفصل الخامس فيبحث الكاتب في المجالس النيابية لجهة كونها جماهير غير متجانسة، لذلك يرى أنّها تتّسم بالخصائص العامة للجماهير. ومع ذلك، يبيّن أهميّتها ويربطها بالفصاحة الخطابية، وبكونها منصّات تقدّم الخدمات للأحزاب السّياسية فقط من دون أي اعتبار للوطن(ص ١٨٦).

ويرى الكاتب أنّ المجالس النيابية تبقى، على الرّغم من كل الصّعوبات، أفضل وسيلة ابتكرتها الشّعوب لحكم نفسها والتّخلص من الاستبداد، فهي النّموذج المثالي للحكم في نظر الكتّاب، والمفكّرين، والفلاسفة، والفنانين، والعلماء. ولا يهدد هذه المجالس سوى التّقييد التّدريجي للحريات الفرديّة النّاتج من القرارات الدّكتاتورية. ومنها على سبيل المثال، سنّ عدد هائل من القوانين التّشريعية، يؤدي إلى زيادة عدد الموظّفين المكلّفين بتطبيقها والّذين يميلون إلى أن يصبحوا السّادة الحقيقيين للبلدان المتحضّرة. أو عندما يقترح نائب ما مشروع قرار يراعي مبادئ الدّيمقراطية وتطلّعاتها، كزيادة رواتب عمال الطرقات، فيضطر النواب الآخرون إلى التّصويت عليه، حتى لا يتهموا بعدم المبالاة لمصالح ناخبيهم، ولكنهم يعلمون أن تصديق هذا القرار سيتطلب فرض ضرائب جديدة (ص ١٩٤–١٩٦).

## خاتمة

قدّم "غوستاف لوبون" في كتابه **سيكولوجيا الجماهير** دراسة لطبائع الجماهير وبيّن علاقتها بالقائد والفرد. وصنّف لوبون الجماهير إلى فئات وبيّن خصائص كلّ منها. ورأى أنّها لا تفكّر بعقلانية، بل تتلقّى الأفكار جملة واحدة، فتتبنّاها أو ترفضها بلا نقاش. وحين يتكلّم القائد أو الزعيم يتحوّل قوله إلى فعل، فتندفع الجماهير إلى التضحية بالنفس من أجله بلا إرادة واعية. وبما أنّها تميل إلى العنف والانفعال الشديد، فيتحوّل التعاطف إلى عبادة، والكراهية إلى رفض مطلق. وعرض العوامل غير المباشرة التي تهيّئ الجماهير لتبنّي بعض القناعات، مثل العرق، والتقاليد الموروثة، والزمن، والمؤسسات، والتربية والتعليم. ثمّ العوامل المباشرة، كالصور، والشعارات، والأوهام، والتجارب، والعقل.

ورأى لوبون أنّ عقائد الجماهير تُقسم إلى آراء ثابتة يصعب تغييرها، وأخرى متحرّكة عابرة. وهناك جماهير وصفها الكاتب بـ"المجرمة"، إذ تتصرّف تحت تأثير الحماسة من دون خضوع للعقل. ويقسم الجماهير أيضًا إلى متجانسة، مثل الطوائف والزمر والطبقات، وغير متجانسة مثل هيئة المحلفين والجماهير الانتخابية والمجالس البرلمانية، وهذه الأخيرة تملك قدرة واسعة على التأثير.

ويميز لوبون بين "الجمهور النفسي (Le Foule Psychologique) "وبين التجمّع البشري العادي، فالأول يتميّز بوحدة ذهنية ويتحرك بلا وعي، في حين أنّ الفرد في التجمّع العادي يتصرّف بوعي مستقل. والجماهير بطبيعتها محافظة، حتى في حركاتها الثورية، إذ تعيد بناء ما تهدمه. وأيًا كانت عقيدتها أو ثقافتها أو مكانتها، فهي تحتاج إلى قائد يفرض نفسه بالقوة لا بالمحاجّة العقلية، فيسحرها ويجذبها بهيبته الشخصية. وينقاد الجمهور إلى سلطة القائد، ويعتمد محرّكو الجماهير على وسائل كالتكرار، والتأكيد، والعدوى، وتستمدّ الآراء قوتها من هيبة القائد أو الزعيم الشخصية.

وأوضح لوبون أنّ الفرد يذوب في الجماعة، فيتصرف كجزء من عقل جماعي واحد، وهو ما يُعرف بـ"الجمهور". ويتشابه الأفراد المنتمون إلى العرق نفسه بواسطة العناصر اللاواعية، ويختلفون بواسطة العناصر الواعية. داخل الجمهور ينصاع الفرد للغرائز، إذ يكتسب شعورًا بالقوة، ويخضع للتّحريض حتى يصبح وكأنّه منوّم مغناطيسيًا.

حين ينخرط الفرد في الجمهور تتغيّر شخصيته وعواطفه، ويتأثّر بعدوى الانفعال والتحريض، فيتصرّف بسذاجة. ومن هنا تنشأ الحكايات والأساطير، وتنتقل بسرعة من دون برهان.

وبناء عليه، بكشف لوبون بوضوح كيفية تشكل وعي الجماهير وأسباب انقيادها خلف القادة والشعارات ويبقى الكتاب دعوة للتفكير في قوة الجماهير وخطورتها، وفي الحاجة الدائمة لوعي ناقد يوازن اندفاعها.